

النافع والضرر...



(وَإِنَّ يَمُوسَىٰ سَسُوكَ اللَّهَ يُضُرُّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يَمُوسَىٰ سَسُوكَ بِرِخَايَرٍ فَهُوَ عَلَٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الأنعام / 17).

الآية توضح بالتصريح أن هناك من الضر ما هو غير العذاب يوم القيامة يمسُّه الله سبحانه به الإنسان، يجب أن يتوجه إليه تعالى في كشفه، وأن من الخير ما يمسُّه الإنسان ولا راد لفضله، ولا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شيء، ورجاء الخير يوجب على الإنسان أن يتخذ سبحانه إليها معبوداً.

والآية تدل على أن الضر كالفقر والمرض ونحوهما، من صنع الله، لا من صنع الناس، وكذا كشفهما والخلص منهما، إذن لماذا السعي والعمل؟

الجواب:

أولاً: إنَّ السعي واجب عقلاً ونقلاً؛ أما العقل فلأن الحياة لا تتم إلا بالعمل، وأمّا النقل فقد تجاوز حد التواتر، من ذلك قوله تعالى: (فَانزَلْنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْهُ فَسَلِّ الْلاَهُ) (الجمعة/ 10).

وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكَلْبُوا مِنْ رِزْقِهِ) (الملك/ 15)، وفي الحديث: "سافروا تغنموا". "تداووا فإنَّ الذي أنزل الداء أنزل الدواء".

وعليه من قصر في السعي، ومسه الضر فهو المسؤول، ومن سعى من غير تقصير ومسه الضر تقع المسؤولية على مجتمعه الفاسد في أوضاعه وأحكامه، وإن كان المجتمع الذي يعيش فيه صالحاً، فقد تضرر بقضاء □ وقدره.

ثانياً: إنَّ □ سبحانه لا يريد الضر لأحد من عباده، كيف؟ وهو القائل: (وَمَا أَرْزَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ) (ق/ 29)، والقائل: (وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) (البقرة/ 207)، وفي الحديث: "إنَّ □ أرحم بعباده من الوالدة بولدها".

وعلى هذا يكون المراد بالضر في الآية ما يجازى به العبد على عمله، أو امتحاناً لمصلحته، وما إلى ذلك مما لا يتنافى مع عدل □ ورحمته.

(وَإِنَّ يَمَسُّسُكَ بِرَخِيْرٍ فَهُوَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الأنعام/ 17)، أي لا راد لخيره وفضله، قال الرازي: "ذكر ذلك للدلالة على أنَّ إرادة □ لإيصال الخيرات غالبية على إرادته لإيصال المضار".

وقد عبر عن إصابة الضرر والخير بالمس الدال على الحقارة في قوله: (وَإِنْ يَمَسُّكَ) ليدل به على أن ما يصيب الإنسان من ضر أو من خير شيء يسير مما تحمله القدرة غير المتناهية التي لا يقوم لها شيء ولا يطيقها ولا يتحملها مخلوق محدود.

وكأن قوله تعالى في جانب الخير: (فَهُوَ عَلَيَّ كُُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وضع موضع نحو من قولنا: فلا مانع يمنعه ليدل على أنه تعالى قدير على كل خير مفروض، كما إنه قدير على كل ضر مفروض، وتنكشف به علة قوله: (فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) إذ لو كشف غيره تعالى شيئاً مما مس به من ضر، دفع ذلك قدرته عليه، كذلك قدرته على كل شيء، تقتضي أن لا يقوى بشيء على دفع ما يمس به من خير.

وتخصيص ما يمس به من ضر أو خير بالنبي (ص) في هذه الآية نظير التخصيص الواقع في قوله: (قُلْ إِنْ يَأْخُذُ بِإِذْنِ عَصَايَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الزمر/ 13)، ويفيد قوله: (وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) (الأنعام/ 18)، من التعميم نظير ما أفاد قوله: (مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يُؤْمِتْهُ فَيَفْقَدْ رَحْمَةً) (الأنعام/ 16).

المصدر: كتاب دروس من القرآن